فاصلة

ثقافة الخوف.. وبؤس المثقف العراقي

قاسم محمد

كنت قد قرأت مرة أن المثقف يتحمل مسؤولية الأخطاء التي وقعت والتي من الممكن أن تقع في أي مجتمع يكون فيه. فكرت كثيراً بهذه الجملة وأنا أتأمل موقف المثقف العراقي هذه الأيام من الأزمة التي نعيشها وتوقفت عند كلمة المسؤولية تحديداً. وتصورت ان افتراض المسؤولية ليس واقعياً إن لم يقم على افتراض الحرية.

وأظن أن لا مسؤولية بلا حرية. ومع ذلك فإن الغريب في حالة المثقف العراقي هو أنه خارج حتى عن الحدود العامة العلاقة بين الثقافة والسياسة. فالبلاد تمر ومنذ مدة ليست قصيرة بمحنة هي الأشد والأعقد في تاريخ العراق إلا أن الأمر يبدو وكأنه لا يعني المثقف لو كأن الوقائع الدموية هذه تحدث في مكان آخر غير العراق، أو أن الدم العراقي الذي يسيل ليس عراقياً. ولم يعد للمثقف أيام الأزمة هذه أدنى صوت. ولم نر من يعلن عن شيء واضح يشير إلى أن في البلاد نخبة من المثقفين شغلوا الدنيا طوال السنوات الماضية.

يجب أن الأول الذي أتحدث عن المثقف بالمعنى العام الذي نتقاطع فيه كل محددات فهمنا للثقافة والمثقف. المعنى الذي يستلزم أن تشارك الثقافة بفعل ايجابي في ما يحدث لنا. أتحدث عن مجموعة من البشر يتوجب أن يكون لها دور مؤثر في ما يحصل من وقائع، عن فئة يجب أن تتحمل ولو الجزء اليسير من مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في العراق.

فإذا كانت الثقافة هي ذلك المركب المتضمن للمعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والأعراف وما إلى ذلك من المكونات فإن المثقف بالضرورة يتحمل التزاما ما مايقا لهذه المكونات باعتباره ممثلا لواحد منها، أو انه في ابسط الأحوال فرد في هذا الوطن الذي يتمزق أمامه، أو انه يحوز بعض مكونات الثقافة التي تضفي على ذاته صفة التشارك المصيري مع الآخرين. ويفترض ان يكون ذلك الفرد الذي يمتلك وعيا مناسبا بذاته، أو يفهم وعيه بحريته وعلاقته بالمجتمع او الدولة ليعاد صياغة هذه المكونات في داخله إلى وازع داخلي يجعله يتحمل المسؤولية أخلاقيا. فالمأمل أن يبدو المثقف العراقي هذه الأيام غائبا عما يجري أو خائفا مما يجري منفصلا عن وعيه وإيمانه ؟

لنتيقن من أن المثقف سيبقى ضمن تصنيف وضعه فيه السياق الاجتماعي والسياسي للثقافة العربية بوصفه مهرجا يرفه عن السلطان أو يتحول إلى لسان له. وفي هذه الحال يتوجب إلغاء فكر غرامشي ومن سبقه ومن تلاه من الذين راحوا يبحثون عن مكان أخلاقي للمثقف في الدولة أو الفئة الاجتماعية.

يبدو أننا لا نستطيع الحديث عن المثقف ودوره في غياب تصور واضح ودقيق لمفهومنا للحرية، أعني حرية الفكر والضمير في كل شيء. يجب أن نتحدث عما تفترضه مسؤولية الحرية من استقلال للوعي. وارتفاع صوت العقل إزاء لا عقلانية السياسة الامريكية في العراق فإذا لم يرتفع صوت المثقف في منعطفات حادة وخطيرة مثل التي نعيشها الآن فلا جهاد للعقل أو المعرفة. ولا ايمان بقوة الثقافة ودورها.

ولنفرض فهم ما يعيشه المثقف من غياب يجب استيعاب فهم ما يحصل أولاً ووضعه في موقعه الصحيح. اذاً، كيف يمكن فهم هذه السلبية بوصفها ظاهره عامة تغلف موقف الثقافة عموما. قد يعترض البعض منهم بقوله ، إننا يجب أن نعالج هذه الظاهرة عبر وضعها في سياقها الواقعي. وبطبيعة الحال سيفترض هذا السياق الواقعي بضعة تبريرات من مثل خوف المثقف من التصفية الجسدية او الاعتقال أو تعرضه للارهاب. وليكن، مادام الطرف الآخر أيضاً يقدم خسائره البشرية والمادية والثقافية في زحمة الصراع والأزمة. ولا أدري لم تنعدل الثقافة عن خوض صراعها الحقيقي وحتى تقديم اضحياتها.

نعتقد ان حالة الهياج التي تسود البلاد تعود في محدداتها الأولى إلى مشكلات ثقافية يجب أن تطرح بجرأة وبصوت عال، وليس عبر مناظرات فضائية سمجة تزايد على الصراع وفقا لمصالح المتناظرين.

لعل غياب المثقف العراقي هذه الأيام ظاهرة تشير إلى البؤس الذي تعيشه الثقافة العراقية. وتشير في الوقت نفسه إلى تفتت المجال المجتمعي للثقافة. وتحول القوى الثقافية إلى بنيات موازية للبنيات التقليدية في المجتمع العراقي بدلا من أن تنقد تلك البنى التقليدية وتعيد صياغتها وتؤشر زيف احتكارها للمعنى والحقيقة بشوة الشارع الذي يعاني من قصور في التربية الثقافية والوطنية. او ربما ان الثقافة تتحول إلى كسور جهوية وطائفية تتوازى والكسور المجتمعية. ويتجلى ذلك بوضوح في حالة الانعزال والانغلاق على الذات الثقافية. والإيمان الأعمى بقدسية ونقاء الثقافة وخلوها من الرجس السياسي، حتى وصلنا إلى مواجهة محافظات ثقافية وقبائل ثقافية أو طوائف ثقافية ، كل ينشد إلى مجاله الاجتماعي أو الطائفي أو القومي. الأمر الذي كشف عن تفتت المجال الثقافي المجتمعي وهشاشته ازاء المتغيرات الثقافية العالمية وازاء الثقافات الطائفية. أو الثقافات القومية وغيرها مما يتحكم في الوعي العام ويحركه في الأزمة الراهنة في العراق.

إن إشاعة ثقافة الخوف هي أول ما تجلى على سطح الأحداث بعد زوال نظام صدام حسين. وهو ما يتداوله المواطن العادي أو يتعامل معه بوصفه موقفا نهائيا للمثقف في ظل غياب دولة القانون. وتتكرس ثقافة ما بعد صدام على وفق الخاصية السياسية التي افترضت لقيادة البلاد. لتتراجع مشاريع الديمقراطية الكبرى ازاء ضغوطات طائفية واثنية وقومية.

إننا الآن بحاجة ضاغطة لمعالجة المشكلات الثقافية أكثر من حاجتنا لمعالجة الحلول السياسية السريعة التي تنشغل بإعادة صياغة تداعيات الحالة السابقة. ليسار إلى دولة بلا ثقافة وتحديد القوى الثقافية في بؤر تلخص مفهوم التحول الحاصل إلى منجزات فردية محكومة برد الفعل. كل ذلك بهدف بهدف السيطرة على وقع الاختلاف والتناظر الذي فجر بعد زوال النظام السابق.إن رفع صوت الثقافة الآن ونقد ما يجري جهرا وعلانية هو الحد الأدنى من الالتزام الأخلاقي لإزاء ثقافتنا لمعالجة ما نعيشه من مشكلات. أو يجب أن يتوازى دور المثقف هذه الأيام مع دور رجل الدين أو السياسة أو القانون. ومن ثم الكشف عن زيف احتكار الحقيقة، ومن ثم السلطة والقوة بيد المحتل أو من يوازيه في إدارة شؤون البلاد. وقد لا نبالغ إذا ما قلنا ان شلل المثقف هو تهميش لقوى المجتمع الحقيقية. أو هو محاولة لإفقاره ثقافيا لصالح ثقافات تستمد قوتها من الفكر الإيديولوجي والشمولي.فمن جراء تضامن خطاب احتكار الحقيقة والقوة تتعرض الثقافة والمجتمع الآن لنوع من الانحطاط الأخلاقي. وحالة انفصال بين الثقافة والمجموع لم يسبق له مثيل في التاريخ.

القسم الثاني

وارد بدر السالم

عشرون يوماً هزت العالم (٥-٦)

بغداد تحترق

لست قادراً على تدوين الألم كما حصل، فما جرى كان اكبر من أن يوصف، واكبر من أن يحدث حتى لو كانت هزيمة ثقيلة في صراع عسكري متكافئ القوة، لكن ان يتحول العراق الى ما تحول إليه من بلد بلا سلطة ولا سيادة ولا أمن، يتحكم بمقدراته اللصوص والأمريكان والمارقون والخارجون عن القانون والقادمون من وراء الحدود، وتشيع في يومياته أعمال العنف والقتل والاغتصاب هو أمر خارج التصديق والاحتمال.

*" تدوين الألم محاولة قد تكون فاشلة للخروج من الاختناق الوطني الذي فاض عن حده وزاد، لكن ما حصل لهذا البلد في حرب "التحرير" كان كارثة بالمقاييس كلها ، وما كان التحرير إلا انتقاماً لشعب كُتب عليه أن يكون هكذا ، أن يفشه قائده الهمام ثلاثين سنة عجفاء ! ويدخله ثلاث حروب ويوقع على حصاره الطويل، وفي النهاية يبيعه ويسلمه الى الغزاة ويتركه مهزوماً في لغز محير حتى الآن!

«قبل إن العين ترى والعقل يفسر، غير ان القلم يتجمد بين الأصابع ، فمهما اتسعت العدسة انحسرت اللقطة لهول ما فيها، ومهما كانت البصيرة نافذة إلا ان سُمك الدخان المنبعث من مركز الحدث يحجب الكثير مما يجب أن يشاهد. وكلما حاولت استدراج الأحداث بعد السقوط المخزي للنظام العراقي، يتباعد اليراع عن الورقة ضئيلاً متضائلاً وتنغلق الذاكرة قسراً كي لا ترى وطناً يمزقه ابناؤه وتتكالب عليه ضباعه وشياهه وحمائمه وصقوره. ويفض مضجعه الغرباء والمجرمون القادمون من خلف الحدود بأزياء لسنا الغبياء حتى لا نعرف من اية صحراء أتت!!

* سقط تمثال "هبل"، فسقط النظام في صباح نيساني كان خارج حدود التثقيف اليومي السائد لبسطاء الناس وعامتهم من ان "النصر" سيكون كاسحاً على القوات الأمريكية والبريطانية الكافرة ، لأن (قائد الحملة الإيمانية) كان يتشبه بجده الحسين عليه السلام، وان الله سيمده بمدد من الملائكة لا نراهم !! لكن القائد "المؤمن" تبخر في لحظة المواجهة الحاسمة وفرّ لا يلوي على شيء، تاركاً جيشه وحرسه نهباً للطائرات، وتاركاً قصوره ورياشه وطنافسه وكراسي الرئاسة الموشاة بالذهب والحرير الخالص لجنود المارينز الصغار الذين يشبهون النساء والدمى والملا

محرقة بغداد

بعد عشرين يوماً من حبس الأنفاس وفوضى الحياة الموضوعة على أكف العفاريت، انكشفت بغداد عن محرقة جديدة تسابق إلى إشعالها الصغار والكبار من الرجال والنساء في ثورة غريبة من نوعها ونادرة في حدوثها بين الشعوب، وهبت بغداد منتفضة من أرق مزمن مسح ذاكرتها وحوّل بشرها الى روبوتات تأتي وتروح مخدرة بفعل عوامل التنويم المغناطيسي الثقيلة. واستيقظ فيها ضمير وطني طالما عذبوه وشوهوه وقصوا شواربه! وهو الذي كان حتى الأمس القريب يشيد بـ " القائد الرمز "ويطيل لقامته الفارعة وينتخي لعنيه العسليتين ويصفق لـ " منجزاته " الوطنية والقومية ، هذا الضمير الوطني المعذب عقوداً من الزمان يكتشف حقيقة قائده الآن وحقيقة جلاده، لينتفض عليه برعونة فائقة بلا هوادة ولا تبصر أو بصيرة ، وقد تداخلت الألوان في بعضها وصارت الساحات كلها معطرة بالطين والدماء وصار الهدف واحداً والجميع تضافروا ضد الجميع ومع الجميع وال الجميع في هيجان مسعور شمل الماء والهواء والتراب وما فيه وما عليه. فالجلاد الذي هرب بجلده تترك رموزه في كل مسامة وطبع رائحته على كل طابوقة وخلق من نفسه صنماً معبوداً للجماهير الغفيرة التي زحفت مرتين مكرهة ووراءها عصي الرفاق الحزبيين ، لإنتخابه رئيساً أبدياً. وكانت مستعدة أن تزحف على أنوفها لحامي الوطن ودرع الأمة العربية وسياجها الشرقي ! وهي تستدل عليه بصوره التي تملأ الشوارع والأرصفة والمحلات والبيوت وتماثيله التي تبارى لها أشهر النحاتين ووضعت في أهم ساحات بغداد.. لكنها هذه المرة تستدرك ما فاتها وتستيقظ على كذبة معمرة توارثتها أجيال ومائتت في حلقتها أجيال وضاع فيها مستقبل أجيال، وتفتح عيونها على جريمة كبيرة ما زال الدم ينقط من أيدي منفذيها، وما زال نبض الغدر يدق في شرايين الضحايا ، وتثأر بطريقة غريبة وغبية للسنوات الفاحلة التي مرت كما تمر الرمال الساخنة على القلوب المقهورة ، فالجميع ابتدأوا بعد الجراح، جرحاً جرحاً، وأحصوا كميات الألم التي كانوا يحملونها طائعين مرغمين مستسلمين. فاستشاطوا بهيجان عاصف، يلفهم غبار ودخان وحقد أعمى، وانعدمت الرؤية الى درجة الصفر وما تحتها، فقد كان كل شيء يدل على صدام حسين ، على قذاراته وجرائمه وانتهاكاته وساديته وعتهه وعفنه ، وكان كل شبر في بغداد يشير إليه ، الى حضوره المقيت على الجدران والأرصفة والشوارع، الى نوازعه الآثمة في نسمات الهواء ، هنا مقراته الحزبية التي تشكل دولة صغيرة لوحدها، هناك جوامعه الغريبة للعمسة بالدماء وحبال المشانق، هناك الشعارات التي تطالعك من الف إتجاه ، هناك مقولات القائد وحكمة الإلهية، هنا الرفاق المطبقون على البيوت كالقدر الأسود حاملين التبليغات تلو التبليغات للصمود والعسكرية والجيش الشعبي والفداء والنخوة ونداء القائد.. هنا وهناك دوائر وبنايات ظلت لثلاثين عاماً أمكنة للقمع والكبت والرشاوى، وظلت فيها الأقبية للقوادين والعاهرات وابناء العشيرة الواحدة وصبيان الشجرة التكريتية الحاقدة على البشرية ، وهنا وهناك كان الظلام الأخير يتبدد برعونة خطيرة، وثمة شمس أخذت تشرق بسرعة مجنونة بين العيون التي أفاقت على حرية جديدة وقبض أبيض وبين الخطى المزاكضة التي كانت تحطم كل شيء أمامها دون بصر وتبصر، منعتقة من أسر طويل وسجن حبس الجميع بلا استثناء.. وكانت بغداد كخيمة تزنح وتتهاوى وتحترق بين الحشود المتهافتة.

كان المشهد عجيباً واستثنائياً ومرعباً يفوق الرعب ذاته ويتخطى المشاهد السينمائية المصورة بعناية فائقة : بشر تتناسل عن بشر ، نساء ورجال وشباب وصبيان وأطفال من الأعمار كلها هبّت غير مصدقة إن عهد الطاغية قد ولى، وإن صدام حسين هرب ومن معه الى قعر وبئس المصير.. كانت الوجوه متشنجة، محتقنة، تساوت أمام أنظارها الألوان، وكانت الطرق كلها تؤدي الى الخراب والتنكيل بالنظام بأية طريقة معتبرة ، حتى لو كانت حرق مبنى للمتقاعدين أو مستشفى أو دائرة تجنيد أو جنسية أو مدرسة ، وكانت الوجوه المحفورة بالألم القديم والقهر الذي حول التجاعيد فيها الى ما هو أمضى من الصخر الجلمود ، كان إنعتاقاً مخيفاً أخرج بغداد عن بكرة أبيها ما إن سقط النظام وتهاوى تمثال "القائد الفذ" في ميدان الفردوس وسحقته الأقدام ، وهو إنعتاق عارم تحطمت فيه حواجز الخوف المزمن وقهر العقود الثلاثة التي سحقت البلاد والعباد بثلاث حروب وحصار طويل وإعدامات مجانية وقتل سهل ومقابر جماعية لأكراد وشيعة وشباب ما عرفوا من الحياة إلا وجهها الأسود ، وما رأوا غير صور "القائد" في صباحاتهم ولياليهم.

"الوجوه الغليظة القاسية التي فقدت الكثير من اتزانها، وغشي عيونها الغبار والرماد ثأرت من (الدولة) بهستيريا متصاعدة وإجرام عالي المستوى ! وعالجت الخطأ الجبار الذي ارتكبه (قائد المسيرة) بأخطاء جبارة لم يصح فيها ضمير لعاقل، ولا اهتز فيها شارب لرجل، ولا استحت فيها امرأة على عرضها وشيبها ، ((لقد حان وقت القصاص)) وكأنما كان هذا شعاراً للجميع اتفقوا عليه دون أن يكتبوه على لافتة، سوى أن سياراتهم كانت مزهوة بالرايات البيض المرفرفة عليها، وهي إشارة سلام بينهم وبين القوات الأمريكية التي فتحت لهم أبواب الوزارات والبنايات الحكومية على نحو سافر، بل كانت دباباتهم ومدرعاتهم وسط العاصمة توفر الحماية لجموعهم المتوالدة كنمل مفترس تلتبد بوجوه صعدت الدماء حتى مناخيرها وقررت الإنتقام بطريقة جاهلة فيها الكثير من الكبت والغيظ والعفوية والانتفاخ الأرعن الى مسالك اللصوصية والتخريب والحرق الشامل لكل ما يمت للدولة بصلة، حتى لو كانت ورقة مرمية على رصيف، إذ يكفي إنها كانت في زمن صدام وإنها من صناعته الفاسدة ! وبهذا التدفق اللامسؤول المحمي من القوات الأمريكية قصداً وبالشعور الذي يصعب استيعابه وفهمه للحظته كانت بغداد على موعد مع عملية لصوصية - تخريبية - تدميرية كبيرة لم تحدث مثلها سابقة على مر التاريخ وأمام أنظار العالم، ولا يستطيع المرء وصفها مهما امتلك من البلاغة والخيال، ولم تنقل لكم الفضائيات إلا ما كانت قادرة على تصويره في لحظات الإنفلات التاريخية التي "احتفل" فيها العراقيون على طريقة (علي بابا) انتقاماً من جلاد وطاغية ومخادع دجال!.

تجربة صلاح نيازي الشخصية في الغرب، وموقع الجواهري منها

محمد كاظم

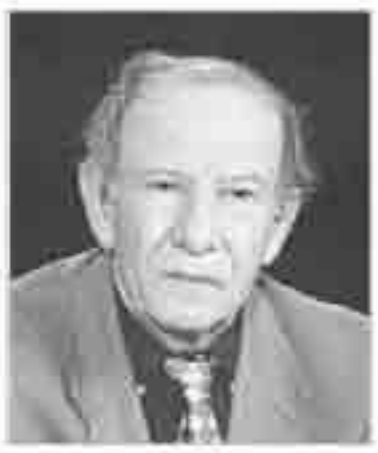

في الدى الثقافي، العدد ٢٢، الأحد ١٤ كانون الأول ٢٠٠٢، شدني اسم الأستاذ صلاح نيازي وعنوان موضوعه "تجربتي الشخصية في الغرب"، والذي غطى صفحة كاملة، معززاً بصورتين، واحدة للجواهري الكبير وأخرى لبلند الحيدري... لقد شاهدت الأستاذ صلاح نيازي في بعض الفضائيات العربية، كان اتجاهه ودعوته للديمقراطية بخط مستقيم، إلا أني كنت الاحظ أن نقاشاته من أجل الديمقراطية والدعوة لها كانت في بعض الأحيان تبتعد عن الواقع العراقي وتجلياته واحتياجاته. والحقيقة أن موضوع الأستاذ صلاح نيازي فاجأني بمحتواه وما هدف له، وخاصة استشهاداته وشخوصها. فبدلاً من أن يضع نتائج تجربته الشخصية بيد المثقف والمواطن العراقي ليفحص مواقع قوته وضعفه، خاصة بعد المأساة التي مرت بها الثقافة وما تعرض له المثقفون الديمقراطيون، نراه يوجه انتقاداته إلى قمم الأدب العربي والعراقي، المتنبي وابو علي القالي والجواهري، ويعتبرهم مثلاً على عقلية البداوة وقوة العضلة والعصبية. من دون أن يذكر شيئاً عن ما قدموه ودورهم وتأثيرهم في السيرة الأدبية والاجتماعية في ظروفهم، وكأنه يعدم المثال بما يناسب افكاره، أو انه متقصد بأن يظهر تجربته الشخصية أعلى من هذه القمم، خاصة الجواهري، حيث استشهد به اكثر من غيره.

إن محور موضوع صلاح نيازي هو الفرق بين العقلية التي يسميها (التدوينية) والتي تسود في الغرب، والتي تستند إلى القانون، وبين العقلية والتي يسميها (الشفاهية) في بلداننا والتي تعتمد على عقلية البداوة والقوة والعنف. وهو بذلك يعود إلى الموضوع الذي طرحه عالم الاجتماع العربي ابن خلدون عندما اعتبر التطور هو الصراع بين الحضارة والبداوة، أو ما طرحه عالم الاجتماع العراقي علي الوردي عن الصراع بين النهر والصحراء. ولكن مشكلة صلاح نيازي هو التعميم، فكل شيء في الغرب هو صحيح، وعملي، وعلمي، وعكس ذلك ما هو موجود في بلداننا، فكل ذلك من موروث الصحراء. ففي الغرب (لندن) كل شيء يسير وفق القانون سواء في البيت بين الزوجين أو في الشارع أو عند ركوب الباص وفي اي تعامل. ولا أثر عند صلاح نيازي الذي عاش ٤٠ عاماً في لندن، لواقع آخر، الجريمة، النافيا، المخدرات، التمييز العنصري، الاستعمار والفاشية، الفضائح السياسية والأخلاقية وعلى جميع المستويات، وآخرها فضيحة فيركة المعلومات عندما سلم العراق وشنت الحرب عليه، والتجسس على مكاتب الأمين العام للأمم المتحدة. وهذا لا ينفي مدى تأثير الوروث في عقلية الإنسان عندنا، ومدى تأثير العادات والتقاليد العشائرية والبدوية في تصرفات الإنسان والمجموعات. غير أن السمة التي تطبع استنتاجات صلاح نيازي، هي لصق كل الصفات السيئة التي كانت تمارس قديماً، بالحياة البدوية وما حولها من حواضر.

ومن هذا التباين في نظرة صلاح نيازي، يدخل إلى مجال النقد الأدبي، ليؤكد نظرية (التدوينية) للأدب الغربي، و"شيوع العظمة في أشعار الصحراء والمآثر البطولية الدموية في اخبارها".

وحتى بعد التطور الذي حصل في عصر النهضة، والذي يذكره صلاح نيازي، فانه يبقى أسير نظرته السابقة. "فلنا ان العظمة شرعت منذ عصر النهضة بالضمور تقريباً. أي منذ تماسنا بالعقلية التدوينية الأوربية. إلا ان مدلولاتها وصفاتها لم تضمر. وجدت لها موصوفات جديدة فالتصقت بها. أي أن الثقة بالعظمة، انتقلت إلى الثقة بطاقة الفرد الذهنية حتى في الحالات التجريدية، وهذا عين ما فعله بعض الشعراء فصوروا انفسهم على انهم الأعلون لا يشق لهم غبار، اخترعوا الجن بالأسماء وسكنوا وديان عبقر حتى يكونوا فوق البشر بدرجات" ويستطرد صلاح نيازي، ليؤكد ان هذه الثقة بالموهبة "ولدت شر آفتين في أدبنا العربي: وهل هما إلا الغرور واليقينية". ليتناول بسياط نقده، نثر ابو علي القالي، حتى وهو يتباهى في علمه بعد أن رأى أن "العلم انفس بضاعه و"لا نعدم أن نرى مثل هذه الازدهاءات في مساجلات عباس العقاد وعبد الرحمن بدوي والرافعي وطه حسين ومارون عبود وإيليا أبو ماضي والبياتي"... الا يقع هنا صلاح نيازي بما رمى غيره به، أي الغرور واليقينية والاستعلاء. فماذا ترك وراءه من رموز الأدب العربي والعراقي، بعد أن أضاف إليهم في استشهادات أخرى، السياب وبلند الحيدري، وبعد أن عاد إلى الجواهري الكبير أكثر من مرة. "قال محمد مهدي الجواهري في قصيدة بائعة السمك في براغ، فلاحت لنا حلوة المجتلى

تلفت كالرشأ الناظر
تشد الحزام على بانة
وتفتر عن قمر زاهر
من الجيك حسبك من فتنة
تضيق بها رقبة الساحر

هل هذه أوصاف لبائعة سمك (جيكية) ام انها تصورات ذهنية جمعها الجواهري فسيفسائياً من بطون الكتب؟". ثم يستطرد صلاح نيازي فيقول، "الجواهري، بلا شك مكتبة شعرية، ولكن حفظ الشعر لمجرد الحفظ، له مخاطره، لانها جعل عملية الإبداع مفتنة لتتناده فيها الصورة ذهنياً، كما يجعل تدفق الكلمات عادة اتوماتيكية، وبذلك تصبح الذاكرة لهم من التجربة، والقاموس أهم من الحوار والمعايشة". ولا ينجو الجواهري من سياط النقد حتى عندما يستشهد صلاح نيازي بنص من الأستاذ محمد حسن الأعرجي، يؤكد فيه تواضع الجواهري بالنسبة إلى الأدب العالمي، أي خلاف ما أكده فيما سبق صلاح نيازي من "هوان يتحول إلى الاعتداد بالقدرة الجسمانية، وهو ما اقتحمته اخلاق الصحراء إلى الاعتداد الشين بالنفس" فهو يعتبر حديث الجواهري للتواضع بالنسبة لأدب شكسبير بأنه أغرب ما قرأ "من اغرب ما قرأت، ما رواه محمد حسين الأعرجي في كتابه عن الجواهري. (قرأ الجواهري ذات يوم بعضاً من مسرحيات شكسبير "طبعة جامعة الدول العربية" فداخ إلى الدرجة التي رأيته يسألني متعجباً، يعني ابو هاشم صدق انا شاعر العرب الأكبر؟ لعد هذي الأمة شكد متخلفة؟ هو هذا ادب واللي نكتبه ادب، صدك ولك؟ كأنه يقول "صحيح انني انا شاعر العرب الأكبر؟ إذا كم متخلفة هذه الأمة التي تسميني كذلك؟ لهذا الذي كتبه شكسبير ادب وما نكتبه انا ادب أيضاً؟ فقلت له، ابا فرات أنت شاعر وجداني، وشكسبير شاعر مسرحي، ولا مجال للمقارنة. فو الله ما زاد على أن قال، اقنع نفسك يا ابا هاشم". الجواهري . دراسة ووثائق ص٢٩٩)... ما الذي يهدف إليه صلاح نيازي من هذا الاستشهاد وما قبله. هل يريد أن يطعن بقوة وتجديد أدب وشعر الجواهري، وهل يريد من خلال ذلك أن ينفي وجود أدب عربي جيد حقاً، من خلال مقارنة ذلك بالأدب الغربي، ومن خلال حديث خاص بين الجواهري والأعرجي، أو من خلال استشهادات لبعض من أبيات شعر الجواهري؟ بالتأكيد لكل قصيدة ظروفها، وهي مرتبطة بنفسية وظروف الشاعر والظروف المحيطة به. ومع ذلك فقد قال الجواهري طيلة مسيرته الأدبية والشعرية، ما لم يستطع أن يقوله أي أديب أو شاعر عربي سواه من حيث المواضيع أو من حيث الصور. وقد شهد العالم العربي بذلك من أرفع أدبائه إلى مختلف الهيئات الأدبية والثقافية، كما شهدت العديد من المؤسسات الأدبية الأجنبية على ذلك أيضاً. وان لقب شاعر العرب الأكبر لم يأت من فراغ، ولم تمنحه له مؤسسة رسمية أو لاعتبارات أخرى. إنه لقب الموهبة والإبداع والجرأة في اقتحام ميادين كان التقرب منها من المحرمات، وليس لأجل تصورات ذهنية جمعها الجواهري فسيفسائياً من بطون الكتب". والحقيقة أن الجواهري لم يتطرق إلى لقب (شاعر العرب الأكبر). صحيح أنه لقب فخري يجلب له الاعتزاز، ولكنه لم يطرح للدراسة والتمحيص أو ما يثبت استخدامه للاعتداد بالنفس. وعند تتبعي لديوانه (من خمسة أجزاء طبعة ٢٠٠٠) والجزء الأول من مذكراته ومقابلاته التلفزيونية، لم أجد أصلاً لهذا اللقب والمناسبة التي طرح فيها، غير أنه شائع عند العراقيين والعرب وقديم في نفس الوقت. ومن هنا تأتي أهميته، فقد التزك فيه الرأي الشعبي مع رجال الأدب والفكر. وقد استوقفني في الجزء الثاني من ديوان الجواهري ص٢٠٦ وفي تقديم قصيدة الجواهري "الى الشباب السوري" عام ١٩٢٨ التي ألقاها في دمشق من قبل جريدة "الاستقلال العربي" عنوان، "صوت شاعر العرب ينادي الشام". وهذا أول ظهور للقب (شاعر العرب) في إصدارات الجواهري. أما الثاني فعندما ألقى الجواهري قصيدة (عبد الحميد كرامي) بمناسبة تأبين المرحوم عبد الحميد كرامي في لبنان عام ١٩٥٠ والموجودة في الجزء الثالث من ديوانه ص٢٧٨. حيث كتب الدكتور (جورج حنا) في جريدة (النهار) اللبنانية ما يلي: "بعد كل الاضطهادات التي استهدف لها رجال القلم والأدب والفكر الحر، تتوج الدوائر المختصة قائمتها بطردها من لبنان محمد مهدي الجواهري. لم تكن جوهرة شعرية وأدبية وحسب. وإنما كانت أجمل لوحة يرسمها فنان عن العالم العربي".

وليس هذا هو التكريم الوحيد للجواهري، فقد منح عام ١٩٧٥ جائزة الكتاب والأدباء الأسيو افريقيين (اللوتس). وكذلك جائزة (سلطان العويمر) للإنجاز العلمي والثقافي عام ١٩٩١. فهل حصل كل ذلك من فراغ، أو من (التقليد وتكرار ما في الكتب) وترديد ما قاله السابقون. لقد بدأ الجواهري حياته الشعرية مبكراً ونشر أول قصيدة عام ١٩٢١، وصدر له أول ديوان "بين الشعور والعاطفة" عام ١٩٢٨. واستمر بانتباهه الفزير لحين وفاته في السابع والعشرين من تموز ١٩٩٧ أي طوال قرن تقريباً. وقد نظم فيها ٤٤٨ قصيدة ومقطوعة عدا الذي ضاع منها بسبب اضطرار الجواهري للترحال والتنقل، وعدا ما لم ينشر بعد من القصائد أو المقطوعات التي يحتفظ بها بعض أصدقائه. ولنعد إلى موضوع البيتين التي أوردهما صلاح نيازي من شعر الجواهري دليلاً على "الإعتداد المشين بالنفس". إلا تتطلب العقلية (التدوينية) ذكر القصيدة أو المناسبة التي قيلت فيها، إن صلاح نيازي لا يريد ذكر القصيدة ويترك البيتين في الفراغ. لأنه يعرف انهما جزء من قصيدة تعتبر من أهم قصائد الجواهري، إلا وهي (المقصورة)، المكونة من ٢٢٧ بيتاً والتي نظمها الشاعر عام ١٩٤٧ في ظروف نفسية حادة، غير أنه تناول فيها جميع مفاصل الحياة في ذلك الوقت.

سلام على هضبات العراق
وشطيه والجرف والمنحنى
على النخل ذي السعفات الطوال
على سيد الشجر المقتنى
على الرطب الغض إذ يجتلى
كوشي العروس وإذ يجتنى
ودجلة زهو الصبايا الملاح
تخوض منها بماء صحري
تريك العراقي في الحالتين
يسرف في شحه والندى

لقد كان الجواهري صادقاً مع نفسه وعبر عن ذلك كثيراً وقد أبدع في ذلك:

أعيذك أن يعاصيك القصيد
وأن ينبو على فمك النشيد
وان تعلو لسانك تمتمات
وأن يتفرط العقد الفريد
اعيذك أن تتوه بكل وادٍ
وأنت لكل ساجعة بريد
فكن كالعهد منتفضاً شباباً
وجود أيها اليفن المجيد
فقل أل وريدك أن يفتي
يجب التاس ما بقي الوريد